الاحتـــــــرام والوقـــــار

اذا كان الانسان علــى يقين بأنــه لم يوجـد سدى،وبأنه جوهـر هذا الوجـود ومعنـاه وسدرة منتهاه.فيــه قبس مــن نــور الله الشعشعاني هــو نفسه الناطقة الخالـدة التي لا تفنى.والتي انطبعت في جوهر ذاتها كل الحقائق البديهية التي بها نفسر الاشياء وهي غيــر قابلــة للتفسير.اذا كان الانسان علــى يقيــن تــام ان عقله هــو مجلى الله سبحانه وكرسي عرشه،كان علــى الانسان ان يقـدر نفسه حـقّ قدرها وينزلها المكانة التي تستحق.فلا يجعل مــن جوارح الجسد سيّـدا ومـن نفسه خادمـا لنزوات ورغبات تلك الجوارح.عليه ان يعلم ان غـذاء نفسه هــو المعرفــة اليقينيــة وسعادتها هــي ادراك المعلومات الالهيـة والفضائل البرهانيـة.وان شقاءها هــو الجهل والعبث والتخبط في مناقــع الاوهام والانجذاب الــى طبائع الجسد المركب الفاني.وعليه ان يعلم ايضا ان نفسه هــي صاحبة القرار والفعل وان جوارح الجسد يجب ان تبقــى دائما وابـدا فــي مركز الانفعال وردة الفعــل.اذ لا يجــوز في منطق العقل ان يكون السيّد الحرّ عبدا والعبد المأمور سيّـدا.بل يجب الانطلاق مـن قاعدة ان سعادة العبد هي في التناغم مع طبائع سيّـده.وبذلك تصبح سعادة الجسد ولذتــه الحقيقية هي في التناغم والانسجام مع طبائــع السيّـد النفس العاقلة الحــرّة المريـدة.من هذا المنطلق اعتبر سقراط ان الباب الذي ندخل منه الى مدينة الحكمة هو معرفة الانسان لنفسه واحترامه لتلك النفس بعد معرفته لها.واحتــرام النفس بعــد معرفتها يبــدأ باحتــرام الله سبحانــه وتوقيــره بعـد معرفتــه. "لأن كل من عليها فان ويبقى وجه ربّــك ذو الجلال والاكــرام".

وعندما وبّــخ الله سبحانه اراذل الناس بلسان عقلــه الكلي قال لهم:"ما لكم لا ترجون لله وقــارا وقــد خلقكم أطــوارا."

وعندما خاطب النساء الحرائر قال لهنّ:"وقّرن في بيوتكّن ولا تبرّجن تبرّج الجاهلية الاولــى" اي البسن الوقـار ثوبـا ولا تتبرّجن بغية اغواء الرجال واغوائهم عبر إثارة شهواتهم وذلك انسياقا مع منطق العقل بأن الانسان يجب ان يظهر للآخرين خير ما عنــده.وخيــر ما عند المــرأة عقلها أولا ومروءتها ثانيا وليس نهديها او ساقيها. قال النبي الكريم:"ليس منا مـن لم يرحم صغيرنا ويوقـر كبيرنا.وقــال ايضا:تعلّموا العلـم وتعلّموا مع العلم السكينة والوقار وتواضعوا لمن تتعلمون منه.وهذا يعني ان العلم قد

يمـر على نفس الاحمق كما يمـر المطر على الصخرة الصمّاء.وان السكينة والوقار يجعلان العلم يستقـر في النفس حتى يغدو طبعا من طباعها فيغدو هـو هي وهي هو ولا فرق بينهما.اما رحمة الصغار وتوقير الكبار فأين نحن اليوم فـي عصـر اصبح فيه الصغار يستغلون للأفعال الشنيعة فيغتصبون وتستباح حرمة اجسادهم ويشجعون علـى تناول المخدرات والكحول وتستباح حرمـة عقولهم.والكبـار يرمون فـي دور العجـزة البائسة او على الارصفة مذلّـون مهانـون. قال النبي الكريم:انزلـوا الناس منازلهم.ولعمري لو أخذ بهذا القـول عملانيا على أرض الواقع لتحققت العدالة وكان كل فرد فـي المكان الذي تؤهلـه ملكاته وامكانياته العقلية والجسدية للوجود فيه ولما بقـي هناك ظالم ومظلوم وحاسد ومحسود وحاقد ومحقـود عليه.

قـال الامام علـي فـي وصف الرجل المثل الأعلى:

وجانب اسباب السفاهـة والخنـا
عفافـا وتنزيها فأصبح عاليـا
وصان عن الفحشاء نفسا كريمة
أبت همّـة الا العلى والمعاليا

لقد عرف الامام علـي بالتجربة والبرهان ان سياج الفقر هو العفة وسياج الغنى هو الكرم والترفع عـن صغائـر الامور ودنيء الشهوات وان نفس الكريم جبلت بالنـور والنـار فإلـى عالـم المروءة والشهامة والمعرفة ترقـى وتنهل ولا تنسفل الى مستنقع الشهوات البهيمية والتمرغ فـي وحول المحرمات العقلية والدينيـة.

قـال ابـو الفتح البستـي:

صنْ حـرّ الوجه لا تهتك غلائله
فكل حـرّ لحـرّ الوجه صوّان

لهفي علـى هذا القول الذي نستوحي منـه أن الحرية والفضيلة وجهان لحقيقة واحدة فلذّات المعرفـة والمروءة والعـزّة والبطولة تسعد لها نفوس الاحـرار.ولذّات الاكـل والشرب والنكاح وتكديس الأموال تسعد لها نفوس العبيد.

واحتــرام الانسان لنفسه وتكريمــه لها بانزالها منـازل المعرفــة والعرفــان والمكارم والمروءات هـي من باب وضع الامور في نصابها الحقيقي.فكيف يعقل بنا ان نبخس جوهـرا بسيطا روحانيا خالــدا فنرميه فــي وحــول النزوات والشهوات والانفعـالات ونغالــي فـي تثمين كيان مركب من طبائع وعناصر فنجعل منه معبودا نخرّ لرغباته ساجدين ونحن لا نعلم متى ينفك تركيبه ويتلاشى ويضمحل.

قــال الشاعــر:

نفسك فأكرمها فإنــك إن تهــن

عليك فلــن تلقى لها الدهــر مكرما

ونحن فــي هذا الشرق العتيق تعودنا ان نحب ونكــره ونأمــر ونأتمـر ولم نتعـود ان نحترم وننتقد وان نناقش ونتحــاور.وهذا لعمري شــرّ البلية،لان الحب غير المقرون بالاحترام هو بمثابة حب حيوان مفضل عندك لجماله او لولائه كحب الانسان للغزال او حبه للكلب.او بمثابـة حب ملكية نتملكها كحب الرجال لنسائهم ،او بمثابة استنساخ واستمرار كحب الآبـاء لأبنائهم .وهـذه فضيحة الفضائــح لان كل انسان هــو كيــان مستقــل متكامل حــرّ عاقــل مسؤول وهــذه المميزات هي هبة الله الى الانسان الذي أعطـاه بصمة يــد وبصمة عيــن وبصمة نفس وبصمة عقــل مستقلــة عــن بصمات الآخريــن مهما قربــوا او بعـدوا،فاعتبروا يــا أولــي الألباب وافهموا حقائق وجودكم واعلموا ان الاحترام يثمــر الحب وليس الحب هــو الذي يثمـر الاحترام وان الحوار هــو الذي يثمـر العقـل الجمعي وليست الأوامر هي التي تثمر ذلك العقل.واعلموا ان الانسان يتوقّــر ويهاب ويحتـرم بتواصفه وحيائــه وعطائــه لا بوقاحتــه ولا تكبـاره وانانيته وغروره.

ونحن فـي مجتمع التوحيد من بديهيات آدابنا احترام صغارنا لكبارنا وطلب المشورة منهم. وتوقيـر رجـال الدّين بجعلهم يسيرون فـي طليعة القوم ويجلسون في صدور المجالس..وتقبيل آياديهم وطلب رضاهم والتبّـرك بحضورهم فـي الأفراح والأتراح ومجالس الشورى ونصيحة أهـل الحلّ والربط. ومن آدابنا توقير كبارنا لأنفسهم ألا يأكلوا فـي الطرقات.وألا يخرجوا من بيوتهم إلا بملابسهم الرسمية وألا يضحكوا أو يهزؤوا بالآخريـن ومـن شدّة احترامهم لأنفسهم وتوقيرهم لها ألا يعـدوا وعدا ليسوا متأكديـن من تنفيذه.وألا يقولوا قولا يأتيه الباطل من أمامه او من ورائه.وألا يجلسوا في مجالس هـزل وسخرية. أو أن يكثروا من الكلام حتى ولو كان كلاما مفيدا خوفا مـن السهو والجنـوح الـى الثرثـرة.ومـن احتـرام الكبار لأنفسهم ألا يظهروا حتى أمام أولادهم بثياب النـوم، ومخافة ان يـروا بعض الصور غير اللائقة منعوا انفسهم مـن الجلوس أمـام التلفـاز إلا لسماع الأخبار. وكذلك من احترام كبارنا لأنفسهم أنّ أكثرهم لا تسوّل لـه نفسه ان ينفق من مال أولاده حتى ولو كانوا أغنياء وأن يجعلوا نفقاتهم مقتصرة علـى ما تجنيـه أيديهم مـن حقولهم وصناعاتـهم الخفيفة فهم بمجملهم أبناء عفّة وعفاف لا يعطون الجسد الا ما يقوم بأوده لخدمة النفوس العاقلة والارواح الزكّيـة.

كمال يوسف سري الدين